الأهرام

المصدر : الشرق الاوسط

التاريخ : ١٥ شعبان ١٤١٢ هـ

أبعاد الواقع الاسلامي في يوغوسلافيا

سرايفو: من اسعد طه

وربما يكون لزاما ان نعرج الى صفحة مؤلمة من تاريخ المسلمين في يوغوسلافيا قبل ان نشرع في بسط مفردات ازمتهم الحالية، فقد تعرض المسلمون هناك ومنذ ان رحل الاتراك عنهم الى صنوف متعددة من القهر والتعذيب هدفت الى تصفية وجودهم نهائيا في المنطقة وكان ذلك هو الهدف المشترك لكل الذين تناوبوا سدة الحكم في بلغراد، بل كان الغاية التي اجتمعت عليها كل الاطراف المتنازعة، وفي ذلك يضرب الشيخ حمدي يوسف امام مسجد بلغراد مثلا واضحا فيقول (ان القيادة الملكية الصربية السابقة، والقيادة الكرواتية لم تتفقا ابدا الا في نقطة واحدة الا وهي تصفية المسلمين، وما زال التاريخ يذكر - والكلام ما زال للشيخ حمدي - كيف كان الكروات يهاجمون القرى الصربية ويقومون بحرقها وذبح اهلها والتمثيل بجثثهم، وكانوا يرتدون وهم يفعلون ذلك الملابس التركية ويتنادون فيما بينهم باسماء اسلامية حتى تنسب الفعلة الى المسلمين ويثار الصرب منهم)

كما كان هناك دائما حد ادنى في سياسة التعامل مع المسلمين هناك لم يشذ عنها الذين تداولوا الحكم، فربما تغلق المساجد والمدارس والتكايا وكتاتيب تحفيظ القران، وربما تهدم او تحول الى متاحف ومخازن للخمور وحظائر للخنازير، لكنها في اية حال تمنع عن اداء وظائفها، وقد تميزت هذه السياسات المعادية للمسلمين والهادفة الى تصفية وجودهم بانها سارت في خطين، احدهما سلمي عبر منعهم من ارتقاء الوظائف الحساسة في ادارة الدولة والجيش والقطاع الاقتصادي والتعليمي، والتضييق على ابنائهم في دخول المدارس او الالتحاق بالجامعات). ويذكر محمد فيليبوفيتشي رئيس منظمة حقوق الانسان في جمهورية البوسنة والهرسك خلال حديث مطول له ادلى به الى صحيفة (بوربا) اليوغوسلافيا نشر في مايو (ايار) ١٩٩٠ ونقلته من قبل جريدة الحياة انه (بدءا من العام ١٩٢١ تم سلب المسلمين في البوسنة والهرسك جميع الاراضي الزراعية التي كانوا يفلحونها منذ مئات السنين، لقد عملت السلطات يومها بنصيحة (ستوبان بروتينشي) وهي لا تقتلوا المسلمين ولا تطردوهم ولكن اعملوا على افقارهم واضعافهم فيموتون او يضطرون الى الهجرة من تلقاء انفسهم)، لكن يبدو ان الروح الشيطانية العدائية للمسلمين التي سيطرت لفترات طويلة هناك لم تكن تتحمل العمل بهذه النصيحة لذلك كانت تلجأ الى الخيار الآخر وهو التصفية الجسدية عبر قتل عشرات الالوف في مذابح جماعية، وسنكتفي هنا فقط بالاشارة الى حادثتين بشعتين، احدهما ذكرها العالم الكرواتي المشهور (برانكو هورفات في كتابة «مسألة كوسوف» حيث اورد ان ملك يوغوسلافيا في الفترة ما بين الحربين (كرال بيتر) مر في طريقه من كوسوفو الى مقدونيا بحشد من المسلمين تحت رقابة الجنود الصربيين فسأل مساعديه من هؤلاء، فقالوا هم مسلمون، فرد

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ان هؤلاء لا قيادة للملكة منهم ويجب ان يبادوا جميعا ولكن من دون ان نخسر عليهم تكلفة الذخيرة والرصاص اقتلوهم بالخشب على حافة الطرقات. ونفذت اوامره على الفور).

اما المثال الآخر فهو حادثة فوجا الشهيرة وكان ذلك في سبتمبر (ايلول) ١٩٤١ وفي اثناء الحرب العالمية الثانية وحين كان الرجال في الحرب قام الصرب بجمع حوالي تسعة الاف من النساء والاطفال والشيوخ من بعض المدن ثم حشدوهم في سهل فوجا واطلقوا عليهم النار فجأة فقتلوا جميعا ثم القي بهم في نهر (درينا)، ثم كرروا المذبحة مرة اخرى في شهر ديسمبر (كانون الاول) مع ما يقرب من ١٣٠ الف مسلم حيث كانت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر ومارسوا معهم اشد انواع العنف والتعذيب، حيث كانوا يفتكون بالاطفال ويبقرون بطون النساء في وحشية لم تحدث مثلها في التاريخ ثم يلقونهم في النهر الذي تحول الى مقبرة مثلجة مغمورة بدم المسلمين الابرياء، وقد اقيمت عليهم صلاة الغائب لأول مرة عام ١٩٩٠ في احتفال مهيب حضره عدة الاف من المسلمين والغريب ان هؤلاء المشاركين المسلمين تعرضوا على طول الطريق الموصل الى هذه المنطقة التي وقعت فيها المذبحة الى اعتداءات الاهالي الصرب الذين كانوا ينشدون اغانيهم القديمة (تعالوا لنذبح اولاد الاتراك) وقد اشارت «الشرق الاوسط» الى هذه الحادثة في حينها.

وبالتالي لم يكن امام المسلمين في يوغوسلافيا الا خيارات صعبة. فاما الهجرة خارج البلاد وقد سهلت حكومة بلغراد عام ١٩٣٨ هذا الامر حين عقدت اتفاقية مع انقرة لنقل نصف مليون من البان كوسوفو الى تركيا على اعتبار انهم من اصول تركية وقد اوقفت الحرب العالمية تنفيذ هذه الاتفاقية، لكن ما لبثت حكومة بلغراد ان دفعت الامور في نفس الاتجاه، واما الصمود والجهاد والمصير مغروف في هذه الحالة ما بين الاعتقال والتعذيب الوحشي في السجون او الاعدام، والخيار الثالث هو التنازل نهائياً عن الهوية العقائدية وقد وقعت شريحة من المسلمين هناك في هذا المأزق حين تنصروا او اعتنقوا الشيوعية في زمنها، وبقي الخيار الاخير هو الاحتفاظ بالاسلام دينا وعقيدة وانتماء حياً في القلوب وسرا لا يجهر به الا في حدود المسموح وهو الخيار الذي اجبر عليه معظم المسلمين هناك، ومع اول نسمة للحرية هناك عادت الكتاتيب والمدارس والمساجد تكتظ بالمسبحين والموحدين.. والركع السجود.

بل طال المسلمون ما حرموا منه عقوداً طويلة.. وهو سدة الحكم في سرايفو العاصمة الجميلة للبوسنة والهرسك وفي ذلك حديث آخر.

رغم ان المناطق التي يعيش فيها المسلمون يجمعها في النهاية - او كان يجمعها - كيان واحد هو الاتحاد اليوغوسلافي، فإن أحوالهم الحياتية تختلف باختلاف مناطقهم، بمعنى انه يصعب تعميم الحديث عن معطيات واقعهم هناك كجملة واحدة، وانما يجب تفصيل الحديث عن كل جمهورية او منطقة، خاصة وان هذا الاختلاف في احوال المسلمين من مكان الى آخر سيشهد المزيد من التباعد باستقلال كل جمهورية على حدة وتأثر مسلميها بسياستها الجديدة. ومع ذلك فهناك خطوط عامة يمكن اجمال الحديث فيها وهي:

أولاً: من حيث العدد الاجمالي للمسلمين في يوغوسلافيا، فإن الرقم المتداول هو ما بين ستة وسبعة ملايين نسمة وذلك في غياب احصائيات رسمية تحصر عددهم، فالسلطات الرسمية تتعمد التقليل من شأن المسلمين هناك عبر اغفال عددهم الحقيقي. وعلى سبيل المثال فإنه لا يتم تصنيف الألبان الذين يعيشون في يوغوسلافيا والذين يزيد عددهم عن مليونين ونصف مليون كمسلمين وانما كألبان حتى يبقى العدد الرسمي للمسلمين صغيراً نسبياً. ورغم ذلك فإن أحد المصادر الصحفية، وهي مجلة «رسالة الجهاد» عدد أكتوبر ١٩٩١، أشارت الى ان العدد الحقيقي للمسلمين هناك هو ثمانية ملايين ونصف مليون مسلم واستندت في ذلك الى ما نشرته المصادر الرسمية للجمهوريات اليوغوسلافية كل على حدة وبمعزل عن المركز الفيدرالي للاحصاء. وفي هذه الحالة فإن ذلك العدد - لو صح - يشير الى حقيقة غاية في الأهمية وهي ان الاسلام هو الديانة الاولى في يوغوسلافيا حيث يبلغ عدد الارثوذكس سبعة ملايين وثمانمائة الف نسمة، وعدد الكاثوليك سبعة ملايين ومائتي الف نسمة، في حين يبلغ عدد اتباع الديانات الاخرى مليونا وثلاثمائة الف نسمة، وفي اي الأحوال، فإن هذا العدد الضخم نسبياً للمسلمين هناك كان من المفروض ان يكون اضعاف ذلك لولا عمليات التهجير القسري والاعدامات والمذابح الجماعية التي تعرض لها المسلمون هناك.

ثانياً: أما عرقياً فتعود أصول المسلمين هناك الى قوميات متعددة، فمنهم البوسنويون وهم ينحدرون بدورهم من أصول كرواتية وصربية، ومنهم الألبان الذين يعيش اغلبهم في كوسوفو ومقدونيا ومنهم كذلك المكدون والاتراك وان كانوا بنسب ضئيلة.

ثالثاً: على المحور الجغرافي يتوزع المسلمون على مناطق متعددة وليس لهم كما الكروات مناطق يمثلون فيها أغلبية مطلقة، وحتى في البوسنة والهرسك، فإن نسبتهم تتجاوز الخمسين بالمائة وان كانت الأرقام الرسمية المشكوك فيها تشير الى اقل من ذلك.

ويجب الاشارة الى ان هذا التنوع العرقي والجغرافي يمثل في أحيان كثيرة نقطة ضعف للكيان الاسلامي في يوغوسلافيا.

رابعاً: اقتصادياً يتأرجح مستواهم بين الفقر الشديد كما هو حال المسلمين في اقليم كوسوفو وجمهورية الجبل الأسود وبين مستوى فوق المتوسط مثل مسلمي سلوفينيا وكرواتيا وهما الجمهوريتان اللتان أعلنتا استقلالهما وكانتا دائماً من أفضل الجمهوريات اليوغوسلافية اقتصادياً. وفي كل الأحوال يبقى المستوى الاقتصادي للمسلمين في أي مكان أدنى من غيرهم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

خامساً: بالنسبة للمحور السياسي، فداخلياً لم يكن لهم نفوذ بين الدوائر والسلطات الحاكمة في الحقبة الشيوعية المنصرمة، وحتى (المسلمون الشيوعيين) إذا صح هذا التعبير الذين استطاعوا ان يصلوا الى بعض المراكز القيادية في عهد تيتو كانوا حريصين على التهرب من الدفاع عن حقوق المسلمين ومطالبهم حتى لا يتهموا في ولائهم للشيوعية بل كان اكثرهم يلجأ الى ظلم اخوانه والغلو في ذلك برهاناً لأولي الامر عن انفصاله التام في دينه وابناء عقيدته، ورغم ذلك فإنه بعد التغييرات الأخيرة تشكلت عدة أحزاب سياسية، سواء في البوسنة أو مقدونيا أو كوسوفو، وتنوعت الرؤى والأولويات لديها بين القومي والديني ولكنها تصب كلها في النهاية في خانة المسلمين، وقد استطاعت هذه الأحزاب في مقدونيا ان تدفع ببعض اعضائها الى البرلمان، وفي البوسنة كانت احسن حالاً حيث طالت سدة الحكم في هذه الجمهورية وانتخب زعيمها رئيساً للبوسنة. اما خارجياً ورغم كل المحاولات التي يبذلها السياسيون المسلمون للتأكيد على أنتمائهم لأوروبا، على الأقل جغرافياً، فإن الهوية الاسلامية تقف عائقاً دون قبول أوروبا لهم وتبنيها وتفهمها لمطالبهم. لذلك عندما نشبت المعارك الدائرة بين كرواتيا وصربيا انقسم الغرب في شأنهم وبقي المسلمون دون ناصر لهم، فقد دعمت ألمانيا وهولندا وايطاليا والمجر والنمسا جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا فيما تلقت الصرب دعماً من اليونان وبلغاريا وروسيا، وكذلك الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة. ورغم ذلك فثمة جهود يبذلها القادة المسلمون لتدعيم علاقاتهم مع تركيا على المحور الاسلامي من ناحية ومع الولايات المتحدة على المحور الغربي من ناحية أخرى.

سادساً: يبقى المستوى الديني نفسه الذي لا يحتفظ بدرجة أو نوعية واحدة في مناطق المسلمين المختلفة، ففي مقدونيا مثلاً تجد ما يمكن تسميته بالاسلام التقليدي حيث التزام عام بالاسلام بين صفوف مسلميها الذين غالبيتهم من الألبان، في حين ان البان كوسوفو التي تجاور مقدونيا يغلب عليهم الطابع القومي عن الديني، اما في البوسنة فهي تكتظ بنخبة من المثقفين المسلمين الذين كانوا أول من سارع بتأسيس حزب سياسي عقب الانفراج الذي شهدته البلاد وربما ساعد على ذلك وجود مدرسة وكلية اسلامية بسرايفو العاصمة، لكن يبقى شوق البوسنويين المسلمين الى العلم والثقافة هو العامل الحاسم في ذلك، وهو نفس الشوق والشغف الذي وجده محمد الفاتح عقب دخوله البوسنة وعندما عرض عليهم ان يستجيب لطلباتهم طلبوا منه ايفاد ابنائهم الى مراكز العلم والنور في الدولة الاسلامية، كما شهدت البوسنة ميلاد اتحاد النساء المسلمات الذي تمارس عضواته نشاطاً مكثفاً هذه الأيام في القضايا الانسانية، مثل ايواء المهاجرين والفارين من مناطق الحرب، والمتضررين من مشاكل البطالة وغيرها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية